مع ابنِ كثير في تفسيره؛ لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

قال عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هذا في الرجلِ يَحْضُره الموتُ، فيَسمَعُهُ رجلٌ يُوصي بوصية تَضُرُّ بورثَتِه، فأمَرَ الله تعالى الذي يسمعه أن يتَّقي الله، ويُوفِّقَه ويُسدِّدَهُ للصواب، فينظرَ لورثته كما كان يُحبُّ أن يُصنعَ بورثَتِه إذا خشي عليهم الضَّيْعَةَ. وهكذا قال مجاهدُ وغيرُ واحد.

وثبت في الصحيحين أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا دخلَ على سَعْد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يعُوده، قال: « يا رسولَ الله، إني ذُو مَال، وَلا يَرِثُني إلاَّ ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي ؟ قَالَ: لا، فَقُلْتُ: بالشَّطْرِ ؟ فَقَالَ: لا. ثُمَّ قَالَ: الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ، أَوْ كَثِيرٌ؛ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ (٢) » (٣)

---

(١) النساء: ٩، ١٠.

(٢) أي يسألون الناس بأكُفِّهم. يقال: تكفَّفَ الناسَ، واستكفَّ: إذا بسط كفَّه للسؤال، أو سأل ما يكُفُّ عنه الجوعَ، أو سألَ كفّاً من طعام.

(٣) البخاري: كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص، رقم ١٢١٣.

وفي الصحيح أن ابنَ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: « لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا [1] مِنْ الثُّلُثِ إِلَى الرُّبُعِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ » [2]

قال الفقهاءُ: إنْ كان ورثَةُ الميتِ أغنياءَ استُحِبَ للميتِ أن يَسْتَوفِيَ الثُلثَ في وصيته، وإن كانوا فقراءَ استُحِبَ أن ينقص الثلث. **وقيل: المراد بالآية** فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى، ولا يأكلوها إِسْرَافًا وَبِدَارًا [3] حكاه ابنُ جرير عن ابن عباس، وهو قولٌ حَسَنٌ يتأيَّدُ بما بعده من التهديد في أكل مالِ اليتامى ظُلماً، أي: كما تُحبُّ أن تُعامَل ذريتك من بعدك، فعامل الناسَ في ذرياتهم إذا وُلِّيتهم.

ثم أعلمهم أنَّ مَن أكل مالَ يتيمٍ ظُلماً فإنما يأكلُ في بطنه نارًا؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ أي: إذا أكلوا أموالَ اليتامى بلا سَبَبٍ، فإنما يأكلون نارًا تَتأجَّجُ في بطونهم يوم القيامة.

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ » [4]

---

(١) غضَّ: خفض ونقص.

(٢) مسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم ٣٠٧٦.

(٣) البدار: المبادرة والمسارعة إلى الأكل منه قبل أن ينقل إلى اليتيم بعد رشده.

(٤) البخاري: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، رقم ٢٥٦٠، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، رقم ٦٣٥١.

أخي المسلم: ذاك ما يُبصِّرك الدينُ به، ويُحذِّرك من الوقوع فيه، ولا عُذْرَ بعد بيانٍ، ولا حُجَّةَ بعد إعذارٍ وإنذار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

وإذا كان ذلك هو عقابُ أولئك الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً، فإن لمَن يقومُ بأمر اليتيم ويرعى شئونَه أجراً، أيَّ أجرٍ، ومكانةً في الجنة، أيَّ مكانة.

روى البخاري، عَنْ سَهْل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا » (١)

تحذيرٌ وترغيبٌ.. تحذيرٌ من أكل أموال اليتامى ظُلماً، وترغيبٌ في رعايتهم والإحسانِ إليهم، والبرِّ بهم.

ويُحطئ مَن يظُنُّ أنه يُحقق خيراً عاجلاً لنفسه باستضعاف ضعيف أو غافلٍ عن حقّه؛ فإن الحقوق لا بُدَّ أن تُؤدَّى إلى أهلها، وإنَّ الله تعالى « يُمْلِي (٢) لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ (٣) » (٤)

ولن يَفْلِتَ أحدٌ من أداءٍ، أو يَفِرَّ من جزاءٍ.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: « مَنْ اقْتَطَعَ (٥) حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا

---

(١) البخاري: كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم ٤٨٩٢.
(٢) أي يُمهل ويؤخر ويُطيل له في المدّة.
(٣) أي لم يُطلقه.
(٤) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٨٠.
(٥) أي امتلك حقّ أخيه المسلم ظلما بالحلف الكاذب.

يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ [1] » [2]

فلا استهانةَ بحقٍّ مهما صَغُر.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [3]

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ [4]

فاتقوا الله – معشر المسلمين – في الضعيفين: اليتيم، والمرأة، ولا تُوقعوا أنفسَكم فيما حذَّركم منه نبيُّكم ﷺ وهو يقول: « اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ » [5] ومعنى أُحَرِّجُ: أي أُلْحِقُ الحَرَجَ – وهو الإثمُ – بمَن ضيَّع حقَّهما، وأُحذِّرُ من ذلك تحذيراً بليغاً، وأزجُرُ عنه زجراً أكيداً.

فلنُؤَدِّ الحقوقَ إلى أهلها، ولنعلم أننا إنما نُرزَقُ ونُنْصَرُ بضعفائنا، كما قال ﷺ: « ابْغُونِي [6] الضُّعَفَاءَ؛ فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ » [7]

أخي المسلم: لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً وأنت تبتغي مرضاتِ ربِّك، واحْذَرْ سُوءَ قَصْدك؛ فإن الله يعلمُ ما في نفسك، واستقِمْ كما أُمِرْتَ، وكُن لليتيمِ أباً شَفُوقاً،

---

(١) نوع من الشجر يُتخذ منه السواك.

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم ١٩٦.

(٣) الأنبياء: ٤٧.

(٤) إبراهيم: من الآية ٤٢.

(٥) ابن ماجة: كتاب الأدب، باب حق اليتيم، رقم ٣٦٦٨.

(٦) أي أعينوني في العثور على ضعفاء الخيل.

(٧) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة، رقم ٢٢٢٧.

وللضعيفِ عَوناً وسَنداً، يكُن ذلك خيراً لكَ في دُنياك وآخرتك.

روى مسلمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: « جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً؛ لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتْ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا! فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنْ النَّارِ » (١)

فتدبَّر ذلك - أخي المسلم - وكُن من أولئك الذين يُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصَة ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ ﴾ (٢)

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم ٤٧٦٤.
(٢) الحشر: من الآية ٩.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يقول تعالى: إنما يتقبَّلُ اللهُ التوبةَ ممَّنْ عَمِلَ السُّوءَ بجهالة، ثم يتوبُ ولو قبلَ مُعاينة المَلَك يقبضُ رُوحَهُ، قَبْلَ الغَرْغَرَة. قال مجاهدُ وغيرُ واحد: كُلُّ مَن عصى الله - خطأً أو عَمدًا - فهو جاهلٌ حتى ينـــزِعَ عن الذنب. وقال قتادةُ عن أبي العالية أنه كان يُحَدِّثُ أن أصحابَ رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كُلُّ ذنبٍ أصابَهُ عبدٌ فهو بجهالة. وعن مجاهد قال: كُلُّ عاملٍ بمعصية الله فهو جاهلٌ حين عَمِلها. وعن ابن عباس قال: مِنْ جَهالته عَمِلَ السُّوءَ ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ عن ابن عباسٍ قال: ما بينه وبين أن ينظُرَ إلى مَلَك الموت. وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريبٌ. وقال قتادةُ والسدي: ما دام في صحته. وهو مروِيٌّ عن ابن عباس. وقال الحسنُ البصري: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ ما لم يُغَرْغِر. وقال عكرمة: الدنيا كُلُّها قريب.

---

(١) النساء: ١٧، ١٨.

وروى الإمـــام أحمد، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « قَالَ إِبْلِيسُ: أَيْ رَبِّ، لا أَزَالُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. قَالَ: فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » (١)

فقد دَلَّت هذه الأحاديثُ على أنَّ مَن تاب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ - وهو يرجو الحياة - فإنَّ توبتَه مقبولةٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ وأمَّا متى وقع الإياسُ من الحياة، وعايَنَ المَلَك، وخرجت الرُّوحُ في الحَلْقِ، وضاق بها الصَّدْرُ، وبلغت الحُلقوم، وغَرْغَرَت النفسُ صاعدةً، فلا توبةَ مقبولة حينئذ، ولاتَ حين مَناص، ولهذا قال: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾، وهذا كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (٢)

وكما حَكَم الله تعالى بعدم توبة أهلِ الأرض إذا عاينوا الشمسَ طالعة من مغربها في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ (٣)

وقوله: ﴿ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على

---

(١) أحمد: باقي مسند المكثرين، مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رقم ١٠٨٠٧.

(٢) غافر: ٨٤.

(٣) الأنعام: من الآية ١٥٨.

كُفْره وشركه لا ينفعه نَدَمُهُ ولا توبتُه، ولا تُقبل منه فديةٌ ولو بملءِ الأرض.

روى الإمامُ أحمدُ، عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ أَوْ يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ مَا لَمْ يَقَعْ الْحِجَابُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْحِجَابُ ؟ قَالَ: أَنْ تَمُوتَ النَّفْسُ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ » (١)

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾، وقد عرفت أن كُلَّ مَن عصى الله فهو جاهلٌ حتى ينـــزِعَ عن الذنب، وأنَّ توبة العبد تُقبَل ما لم يُغرغِر ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ والدنيا كُلُّها قريبٌ، وهذا من سَعَةِ رحمة الله وفضله على عباده.

ومَن تدبَّر الأمرَ بادَرَ بالتوبة ولم يؤجِّل، فمَن ذا الذي يضمن أجَلَه ساعةً من نهارٍ حتى يؤجل ؟! ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ (٢)، ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (٣)

---

(١) أحمد: مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه رقم ٢٠٥٤٤.

(٢) لقمان: من الآية ٣٤.

(٣) البقرة: من الآية ١٤٨.

إن المبادرةَ بالتوبة دلالةُ رُشد وفلاح ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)، وقد كان الرسولُ ﷺ يستغفرُ الله ويتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرَّةً، والله تعالى « يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » (٢)، والله تعالى يفرح بتوبة عبده، فهل من تائب أو مستغفر ؟ « لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِه - حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ - مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِه (٣) بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ (٤) مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِه، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا (٥)، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » (٦)

أخي المسلم: لا تقنَط من رحمة الله، وبادِر بالاستغفار والتوبة، ولا تؤجِّل؛ فإنَّ الأجَلَ ليس بيدك، واعلم أن الله يعلمُ ما في قلبك، فأخلص القصدَ له، وأحسِن التوجُّه إليه، ولا تكُن من أولئك الذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسَهم، فضلَّ سَعْيُهم وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً. واجعل توبتَك منوطةً بحُسن اتباعك لنبي الرحمة ﷺ؛ فإن فلاحَك في اتباع صراطه المستقيم ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٧)

---

(١) النور: من الآية ٣١.

(٢) مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب، رقم ٤٩٥٤.

(٣) الراحلة: الناقة التي يركب عليها.

(٤) أي ذهبت في خفية.

(٥) الخطام: حبل يُقلَّد به البعير، ويُعقَدُ على أنفه لينقاد.

(٦) مسلم: كتاب التوبة، باب في الحضِّ على التوبة والفرح بها، رقم ٤٩٣٢.

(٧) الشورى: ٥٣.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يقول تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ يعني: كلامَ الناس ﴿ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ أي: إلاَّ نجوى مَن قال ذلك، كما جاء في الحديث: « كَلامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لا لَهُ، إلا أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرًا لِلَّهِ » (٢)

وقد جاء فيما رواه الإمامُ أحمدُ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لا يَصْلُحُ الْكَذِبُ إلاَّ فِي ثَلاثٍ: كَذِبِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ لِيُرْضِيَهَا، أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ كَذِبٍ فِي الْحَرْبِ » (٣)

---

(١) النساء: ١١٤، ١١٥.

(٢) المعجم الكبير للطبراني: ٢٣/٢٤٣، رقم ٤٨٤.

(٣) أحمد: من مسند القبائل، حديث أسماء ابنة يزيد رضي الله عنها، رقم ٢٦٣١٥.

وفي الحديث المتفق عليه، عن أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: سَمِعتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا » (١)، وروى الإمام أحمدُ، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: صَلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ؛ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » (٢)

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أي مُخلصاً في ذلك، مُحتسباً ثوابَ ذلك عند الله تعالى ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثواباً جزيلاً، كثيراً واسعَ.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: ومَن سَلَك غير طريقِ الشريعة التي جاء بها الرسولُ ﷺ، فصارَ في شِقٍّ والشرعُ في شِقٍّ، وذلك عن عَمْدٍ منه بعد ما ظَهر له الحقُّ، وتبيَّنَ له واتَّضح ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ أي إذا سَلَكَ هذا الطريق جَازَيْنَاهُ على ذلك بأنْ نُحسِّنها في صدره، ونُزَيِّنها له؛ استدراجاً، كما قال تعالى: ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٣) وقال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (٤)، وجعل النارَ مصيره في الآخرة؛ لأنَّ مَن خرج عن الهُدَى لم يكن له طريقٌ إلا النار يوم القيامة، كما قال

---

(١) البخاري: كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، رقم ٢٤٩٥.

(٢) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٤٣٣، وقال: هذا حديث صحيح.

(٣) القلم: ٤٤.

(٤) الصف: من الآية ٥.

تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [1]

أخي المسلم: ذَاكَ ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

ولنقف وقفةً مُتدبِّرةً عند قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقد جاءت هذه الآية في أسلوب شرط وجزاء، ودَلالته لا تخفى في بيان الأعمال ونتائجها، ومن تدبَّر القرآنَ الكريم علم أن دلالة الشرط والجزاء - في بيان نتائج الأعمال - ساريةٌ في القرآن كُلِّه، سواء فيما جاء بهذه الصفة أو بغيرها؛ ليكون الإنسانُ على بيِّنةٍ من أمره، وأن يعرف - في كُلِّ شيء - ما يترتب على نيَّته وعمله، وهذا من تفصيل القرآن وتبيينه، بل من تيسيره وتسهيله لمَن أراد أن يذَّكر ويعتبر؛ فأنت عندما تقرأ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [2] تستطيع أن تَزِنَ أمورَك، وأن تُدرِكَ عاقبةَ كُلِّ أمرٍ، صَغُرَ أو كَبُرَ.

---

(١) الكهف: ٥٣.

(٢) الزلزلة: ٧، ٨.

وعندما يعمد مَن يعمدُ إلى مخالفة الحق والإعراض عنه بعد بيانه، فقد اختار لنفسه الجزاءَ المترتِّب على عمله ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾

ولا عُذْرَ بعد بيان، ولا حُجَّةَ بعد إعذارٍ وإنذار.

وما من شأنٍ إلاَّ وترى للقرآن فيه هدايةً وتبياناً ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ (١)

ومن هنا يستطيع الإنسانُ - حين يتَّبع هُدى الله - أن يعصمَ قلبَه ولسانَه، وأن يكون - وقد شَرَحَ الله صدرَه للإسلام - على نُورٍ من ربِّه، يُصلِحُ قَصْدَه، ولا ينطق إلاَّ بما يُرضي ربَّه، وهو يعلم أنَّ الناسَ مأخوذون بذنوبهم، مُحاسَبون على حصائدِ ألسنتهم.

﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢)

وكُلُّ كلامِ ابن آدم له لا عليه، إلا ذِكْرُ الله ﷻ أو أمرٌ بمعروف، أو نهي عن مُنكر ﴿ ۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾

ذاك هو الجزاء لِمَن عَصَمَ لسانَه من اللغو، وعصَمَ قلبَه من سُوء النيَّة والقَصْد، فالإخلاص والاتباع هُما السبيلُ للفوزِ بعظيمِ الأجر.

---

(١) النحل: من الآية ٨٩.

(٢) النور: ٢٤.

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

ومَن أبَى إلاَّ المشاقة والمخالفة لما دُعِي إليه من خيرٍ، واتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين - عن عَمْدٍ وقَصْدٍ - فذاك مآلُه ومصيرُه.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يُخبرُ الله تعالى أنه مالكُ السماوات والأرض، وأنه الحاكمُ فيهما، ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي: وصَّيناكم بما وصَّيناهم به من تقوى الله ﷻ بعبادته وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ كما قال تعالى - إخباراً عن موسى أنه قال لقومه -: ﴿ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)،

---

(١) النساء: ١٣١- ١٣٤.

(٢) إبراهيم: من الآية ٨.

وقال: ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ [1] أي غنيٌّ عن عباده ﴿ حَمِيد ﴾ أي: محمودٌ في جميع ما يُقدِّره ويُشرِّعه.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴿١٣٢﴾ ﴾ أي: هو القائمُ على كل نفسٍ بما كسبت، الرقيبُ الشهيد على كل شيء.

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾ أي: هو القادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [2]

قال بعضُ السلف: ما أهونَ العبادِ على الله إذا أضاعوا أمرَه. وقال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [3] أي: وما هو عليه بممتنع.

وقوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي: بيده هذا وهذا، فلا يقتصر قاصرُ الهمَّة على السعي للدنيا فقط، بل لتَكُن همَّته سامية إلى نَيْلِ المطالب العالية في الدنيا والآخرة؛ فإن مرجعَ ذلك كُلِّه إلى الذي بيده الضُّر والنفع، وهو الله لا إله إلا هو، الذي قسَّم السعادةَ والشقاوةَ بين الناس في الدنيا والآخرة، وعدل بينهم فيما عَلِمه فيهم، مِمَّن يستحق هذا، ومِمَّن يستحق هذا، ولهذا

---

(١) التغابن: من الآية ٦.
(٢) محمد: من الآية ٣٨.
(٣) فاطر: ١٦، ١٧.

قال: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾.

أخي المسلم: هذا ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير هذه الآيات ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

إن هذه الآيات البيِّنات - وهي الحقُّ من ربِّك - لكَ فيها تبصرة وذكرى، والذِّكرى تنفع المؤمنين.

إنها وهي تُبيِّنُ لك أن لله ما في السماوات وما في الأرض، وتُكرِّرُ ذلك في آيةٍ واحدةٍ من هذه الآيات وما تليها، تُبصِّرك بما يجبُ أن تكونَ عليه من إيمانٍ ويقين، وتُحدِّدُ لك السبيلَ لخشية الله وتقواه؛ فإن مَن أيقنَ بهذه الحقيقة ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لم يستَعِن إلاَّ به، ولم يكن عبداً لشيءٍ سواه، وكان ذلك هو السبيلُ للخروج من الظلمات إلى النور، والتخلُّص من الأمراض الخبيثة التي تفتكُ بالناس، وتدمرُ حياتَهم، أمراض: النفاق، والرِّياء، والذُّل، والهوان، والشهوات، والشبهات. وكُلُّها أمراضٌ تنشأ في النفس حين يتَّخذ الناسُ بعضُهم بعضاً أرباباً من دون الله، عندئذ يستشري الفسادُ والطغيان، وتُهدرُ كرامة الإنسان.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ حقيقةٌ تُصَحَّحُ بها المفاهيم، وتستقيم

الموازين، ويعرف الإنسانُ قَدْرَه، ويذكر ربَّه، ويخشاه ويتقيه ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

إن إهمالَ هذه الحقيقة ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ في حياة الناس ومعاملاتهم، ونسيانها في شئونهم الخاصة والعامة، أَضَرَّ بهم، وجعل ما يرجونه أو يخشونه من دون الله أعزّ عليهم من الذي له ﴿ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

ولا تَسَلْ عمَّا يكون من فِتَنٍ وضياعٍ إنْ لم يتدارك الناسُ أنفسَهم، بجعل هذه الحقيقة أصلاً في حياتهم، بأن تكون لله، لا لشيءٍ سواه ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾

ويُخطِئ مَن يظنُّ أنَّ دُنيانا بمعْزِلٍ عن أُخرانا، وأنَّ لها أسباباً بعيدة عن هذا السبيل ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ فمَن أراد دُنياه أو أُخراه فمَرْجِعُ ذلك كُلِّه إلى الله، لا إلى أحدٍ سواه ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ﴾ ومَن عرف ذلك صَان نفسَه من العبودية لغير الله، فلم يطلب ثوابَ دُنياه أو أُخراه إلاَّ من الله، واستَمْسَكَ بما وصَّى به الله ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾.

---

(١) النور: ٥٢.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يأمر تعالى عبادَه المؤمنين أن يكونوا قوَّامين بالقِسط، أي: بالعدل، فلا يعدِلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخُذهم في الله لومَةُ لائمٍ، ولا يصرفهم عنه صارفٌ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين، متعاضدين مُتناصرين فيه.

وقوله: ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ (٢) أي: أَدُّوها ابتغاءَ وجهِ الله، فحينئذٍ تكون صحيحةً عادلةً حقّاً، خاليةً من التحريف والتبديل والكتمان ﴿ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: اشْهَد الحقَّ ولو عادَ ضررُه عليك، وإذا سُئِلتَ عن الأمرِ فقُل الحقَّ فيه ولو عادت مضرَّتُه عليك؛ فإن الله سيجعل لِمَن أطاعَه فَرَجاً ومخرجاً من كل أمرٍ يضيقُ عليه.

وقوله: ﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴾ أي: وإن كانت الشهادةُ على والدَيْك

(١) النساء: ١٣٥.
(٢) الطلاق: من الآية ٢.

وقرابتك، فلا تُراعهم فيها، بل اشهد بالحقِّ وإنْ عادَ ضررُها عليهم؛ فإن الحقَّ حاكمٌ على كل أحدٍ، وهو مُقدَّمٌ على كُلِّ أحَدٍ.

وقوله: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أي: لا ترعاه لغناه، ولا تُشفِق عليه لفقره. الله يتولاَّهُما، بل هو أولى بهما منك، وأَعْلَمُ بما فيه صلاحهما.

وقوله: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ﴾ أي: فلا يحملنَّكُم الهوى والعصبيةُ وبُغْضُ الناس إليكم على تَرْك العدلِ في أموركم وشئونكم، بل الزَموا العدلَ على أيِّ حالٍ كان، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (١)

﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ ﴾ قال مجاهدُ وغيرُ واحدٍ من السلف: ﴿ تَلْوُۥٓا۟ ﴾ أي: تُحرِّفوا الشهادةَ وتُغيِّروها. واللَّيُّ هو: التحريف، وتَعَمُّد الكذب. والإعراضُ هو: كتمان الشهادة وترْكها.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (٢)

وقال النبي ﷺ: « ألا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ. الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا » (٣) ولهذا توعَّدهم الله بقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ أي: وسيجازيكم بذلك.

---

(١) المائدة: من الآية ٨.

(٢) البقرة: من الآية ٢٨٣.

(٣) مسلم: كتاب الأقضية، باب بيان خير الشهود، رقم ٣٢٤٤.

أخي المسلم: تدبَّر هذه الآية وما جاءَ فيها ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾.

إنَّ هذا النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ له دلالتُه، والاتصاف بالإيمان له تكاليفُه وتَبِعاته، وله أمانتُه ومسئوليته، وأولى هذه الأمور القيام بالقسط في كُلِّ حالٍ، وفي أيِّ مجالٍ. القسط بين الناس بإعطاءِ كُلِّ ذي حقٍّ حقَّه دونَ نظرٍ لقريبٍ أو بعيد، أو عدوٍّ أو صديقٍ ﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ حِسْبَةً لله، وطلباً لرضاه، وتجرداً من كل مَيْلٍ أو هوى.

هكذا يرفعُ الإيمانُ صاحبَه إلى هذا المستوى الرفيع، ويجعله للحقِّ لا لشيءٍ سواه. وهكذا يُؤمَرُ أهلُ الإيمان أن يكونوا قوَّامين بالقسط، شهداءَ لله، وأن يقولوا الحقَّ ولو على أنفسهم أو آبائهم وأبنائهم، ولا يُحابُوا غنياً لغناه، ولا يرحموا مسكيناً لمسكنته.

﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾

أي: فلا تتبعوا أهواء أنفسكم - في الميل في شهادتكم إذا قُمتم بها - لغنيٍّ على فقيرٍ، أو لفقيرٍ على غنيٍّ، وأدُّوا الشهادةَ على ما أمركم الله بأدائها، بالعدل لمن شهدتم لـــه أو عليه؛ فالله أَوْلَى بغنى الغنيِّ وفقرِ الفقير؛ لأن ذلك منه لا من غيره، فلذا قـــال: ﴿ فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾، ولم يقُل: به.

﴿ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

وإن تلووا أيُّها الشهداء في شهادتكم، فتُحرِّفوها ولا تُقيموها، أو تُعرضوا عنها

فتتركوها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ يعلم ما أنتم فيه، فيحاسبكم عليه، ويجزي المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ بإساءته. فاتقوا الله ربَّكم، وأقيموا الشهادةَ لله.

أخي المسلم: لا يحملنَّك حُبُّك لنفسك، أو حُبُّك لأهلك وأقربائك، أو عطفُك على فقيرٍ، أو ميلُك إلى غنيٍّ - في موطن الشهادة والحُكم - أن تتَّبع الهوى؛ فإنَّ اتِّباعَ الهوى يُضلك عن سبيلِ الله.

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

ولا يحملنَّك حُبّ مَن تُحبّ، وبُغْضُ مَن تبغض على ألاَّ تعدل فيما تحكم أو تشهد ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

هكذا أمرَ اللهُ أهلَ الإيمان أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، وأن يُخضعوا أهواءهم للحقِّ الذي جاءهم من ربِّهم. وإذا كان العدلُ واجباً مع أعدى الأعداء، فكيف يكون مع الأولياء ؟

روى مالك عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى خَيْبَرَ، فَيَخْرُصُ (٢) بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ خَيْبَرَ. قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حلياً مِنْ حلي نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا لَكَ وَخَفِّفْ عَنَّا، وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ

(١) ص: من الآية ٢٦.

(٢) الخرْص: تقدير الثمار على رؤوس الشجر بالتخمين.

رَوَاحَةَ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَمَا ذَاكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ (١) عَلَيْكُمْ. فَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنَ الرَّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ (٢) وَإِنَّا لا نَأْكُلُهَا. فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ » (٣)

هكذا الإيمان. وهكذا يجب أن يكون المؤمنُ حيثُ كان.

(١) الحيف: الظلم والميل عن الحق.

(٢) السحت: الحرام.

(٣) الموطأ: كتاب المساقاة، باب ما جاء في المساقاة، رقم ١١٩٨.

مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين قوله:

يقول تعالى مخاطباً جميعَ الناس، ومُخبراً بأنه: قد جاءهم منه برهانٌ عظيمٌ، وهو الدليلُ القاطع للعُذْر، والحُجَّةُ المزيلةُ للشبهة. ولهذا قال: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ أي: ضياءً واضحاً على الحقِّ، وهو القرآن الكريم.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي: جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم. قال ابنُ جريج: آمنوا بالله، واعتصموا بالقرآن.

﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ أي: يرحمهم فيدخلهم الجنةَ، ويزيدهم ثواباً ومضاعفةً ورَفعاً في درجاتهم؛ من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ أي: طريقاً واضحاً، قَصْداً قَوَاماً، لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف.

وهذه صفةُ المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهُم في الدنيا على منهاجِ الاستقامة

---

(١) النساء: ١٧٤، ١٧٥.

وطريقِ السلامة، في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المُفْضِي إلى روضاتِ الجنات.

أخي المسلم: هذا ما ذكره ابنُ كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

والناسُ جميعاً مُخاطَبُون بهذه الرسالة الخاتمة إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، ومن أجل ذلك حُفِظَ الذِّكرُ، وبقي محفوظاً بحفظ الله؛ تحقيقاً لوعده، وإعذاراً لخَلقه.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (٢)

فمَن بلغه القرآن من عَرَبٍ وعَجَمٍ، وأسود وأبيض، وإنسٍ وجنٍّ، فهو نذيرٌ له، ومَن كَفَرَ به فالنارُ موعده.

والقرآنُ الكريم فيه البرهان على أنه خطابُ ربِّ العالمين للناسِ أجمعين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وفيه نورٌ أيُّ نور ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾

نورٌ تُعرَفُ به حقائق الأشياء، ويتَّضح السبيلَ بلا التباسٍ أو خفاء، به تستنير النفس فتؤمن وتستقيم، ويستنير المجتمع فتزكو روابطُه، وتسمو غاياته، وتعرف عِزَّته،

---

(١) الحجر: ٩.

(٢) الأنعام: من الآية ١٩.

وأنه ينتسب إلى كتاب عزيز ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

وهكذا يكون كُل مَن اتَّبعه واهتدى بهُداه.

إنه نورٌ - أيُّ نورٍ - به تطمئن القلوبُ، وتحيا الضمائرُ، ويعرف الناسُ الغايةَ والمصير.

نُورٌ من الله النُّور ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

إن مَن يعتصم بالله يُهدَى إلى صراط مستقيم ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (٣)

والأُمَّةُ التي تعتصم بحبل الله جميعاً ولا تتفرَّق، تذكر نعمةَ ربِّها وتشكره، وتهتدي بهُداه، وترجو رحمتَه ورضاه. الأُمَّةُ التي تعرف بركةَ القرآن تُحسنُ تدبره، وتتَّبع هُداه، وتتَّقي ربَّها وتخشاه. وتلك أُمَّة تنال رحمةَ ربِّها، وتتراحم فيما بينها.

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (٤)

---

(١) فصلت: ٤٢.
(٢) النور: من الآية ٤٠.
(٣) آل عمران: من الآية ١٠١.
(٤) الأنعام: ١٥٥.

إن الاعتصامَ به يوجبُ الأخذَ بالأسباب التي يأمر بها، ويدعو إليها، في كُلِّ مجالٍ، دون تواكل أو قعود، الأسباب التي يدعو إليها من: صدق النية، وشرف الغاية، وإخضاعِ كُلِّ شيءٍ لشرف الغاية والمصير. ويكون شعارهُا في حياتها كُلِّها.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١)

إنَّ الاعتصامَ به والانتسابَ إليه شَرَفٌ، أيُّ شرفٍ. ومَن شَرُفَ نَسَبُهُ عَظُمَت مسئوليتُه، وسَمَتْ غايتُه ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

ومَن كان كذلك استقام سَعْيُه، وطابت حياتُه، وحَسُنَت عاقبتُه.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

أخي المسلم: تدبَّر كتابَ ربِّك، واعمل به، يكُن حُجَّةً لك. واعلم أن الاعتصامَ بحبل الله سبيلُ الفوز والنجاة، وأن الإعراض عن هدايته سببٌ في سُوءِ العاقبة والمصير، فحاسِب نفسَك على صِدق الإيمان بالله، والاعتصامِ به؛ لتنعَم برحمته وفضله، وتُهدَى إلى صراط مستقيم. اعتصِم بحبلِ الله، باتباع أمره، واجتناب نهيه، وصاحِبه في عُسرك ويُسرك، يكُن لك شفيعاً عند ربِّك.

روى الإمامُ مسلمٌ، عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسولَ الله يَقُولُ:

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) الزخرف: ٤٤.

« يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ. وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ، مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ (١)، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ (٢)، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ (٣) تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا» (٤)

فاللهم ارحمنا بالقرآن، واجعله لنا إماماً ونوراً وهدىً ورحمةً.

اللهم ذكِّرنا منه ما نُسِّينا، وعلِّمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناءَ الليل وأطرافَ النهار، واجعله لنا حُجَّةً، يا ربَّ العالمين.

---

(١) الْغمامة والْغيَاية: كُلّ شيْء أَظلّ الإنْسان فوْق رأْسه، مِنْ سحابة وغبرة وغيْرهما. قَالَ الْعُلَمَاء: الْمُراد أنّ ثوابهما يأْتي كغمامتيْن.

(٢) بِفتْح الرّاء وإِسْكانها، أيْ: ضياء ونُور.

(٣) الْفِرْقان والْحِزْقان: معْناهما واحد، وهُما قطيعانِ وجماعتانِ، يُقَال فِي الْواحِد: فِرْق وحِزْق وحزِيقة أيْ جماعة.

(٤) مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم ١٣٣٨.